العدد (1885) السنة الثامنة - السبت (21) آب 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapap

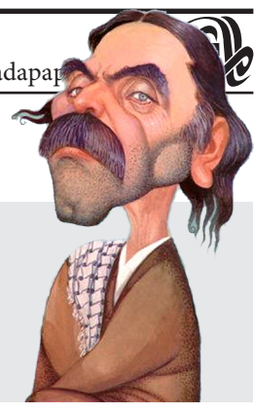

ابو كاطع .. كاتب اقترن اسمه برائحة الريف

المواطن شمران الياسري

علي حسين

◆ نافر ومتمرد وعنيد ورقيق وآسر وكريم وعاشق ومستوحد ◆

حكمة مجربة، ممزوجة ببراءة، وهناك بالتأكيد عشرات الصفات الاخرى، التي كانت تشكل قوام شخصية الكاتب والسياسي و العراقي حد النخاع شمران الياسري (ابو كاطع)، والتي هي مزيج من سجايا وخصال المثقف الوطني والمبدع المتمرد على ارصفة مقاهي الادب.. هكذا كنت ارسم صورة للمواطن الساخر (ابو كاطع) وانا اتابع عموده اليومي في صحيفة طريق الشعب، واخطو بخطوات متعثرة في بلاط صاحبة الجلالة، وقتها شغفت بهذه الكتابات التي يغلفها صاحبها دائما بروح النكتة، وعرفت فيما بعد ان هذه الكتابات ما هي الادرس عن دور المثقف وعلاقته بالمجتمع... هذا التركيب الفريد الذي ضم بين عناصره عبقرية الكاتب ووطنية المثقف واحساس الفنان..هذا التركيب الفريد احتواه هو في عقله وروحه ليصبح شمران الياسري واحدا من الذين شكلوا وجداننا الثقافي وواحدا من القادرين في سطورهم على اختزال وتلخيص لحظات مهمة في حقبة زمنية كاملة..

رجل شديد الاعتزاز بعراقيته..شديد الشبه بوطنه نافر ومتمرد وعنيد ورقيق وآسر وكريم وعاشق ومستوحد..شديد الشغف بانتمائة الى جذوره الريفية ..حين يكتب يصمت الجميع..كتاباته تأخذ شكل الاحكام..كلماته بمثابة سطور الحكمة في قصيدة شاعر لكنها على الرغم من اتخاذها شكل الاحكام فان المواطن شمران الياسري ينأى بها عن الاطلاق، وهو دائم الدخول والاشتباك في ساحات الحوار مع الجميع بصبر ودأب ورقة وحزم بحيث نستطيع ان نقول ان شمران الياسري اسس وابدع في علم الحوار الديمقراطي.

صاحب كلمات خاصة جدا، كان قادرا طوال الوقت على التعبير عن مجمل التناقضات الاجتماعية والسياسية من حوله بحس شعبي عميق، وفي كل ماكتب كان متقنا ومجيدا ورائدا، عاصر ابو كاطع تحولات خطيرة ومراحل متقلبة كان ابرزها ثورة ١٤ تموز، وكان لديه انجذاب حقيقي للنماذج البشرية والشخصيات والتجارب الإنسانية التي تترسخ بها كل الصفات الشخصية العراقية بعناصرها الإيجابية والسلبية،وله قدرة على النفاذ إليها، ويفتش في أعماقها وأفكارها وأحلامها، أضاف للكتابة الساخرة حسه وقدرته على التقاط التناقض بين القول والفعل، الحلم والحقيقة، السلوك والإيجاز.

.ولعل سر نجاح شمران الياسري الابداعي أنه استقى المادة الأولية لكتاباته الساخرة من وقائع الحياة اليومية، بكل ما فيها من متناقضات ومفارقات عجيبة ومواقف تدعو إلى السخرية نتيجة الوضع الذي كان سائداً في العراق آنذاك، كما لجأ إلى الموروث الشعبي الذي يتضمن الأساطير والقصص الخيالية ووظفه توظيفاً متميزاً في كتاباته، واستطاع من خلاله إيصال ما يريد إلى القارئ بأسلوب ساخر.

ومن يقرأ نتاجه يلمس بوضوح تدفق تلك اللغة الساخرة في كتاباته، ليس بهدف الضحك والامتاع، وإنما كشف الواقع المر بوعي ونضج وفضح المظاهر السلبية التي كانت منتشرة آنذاك والمتمثلة في الفساد والرشوة والمحسوبيات والظلم والطغيان، لنبذها ورفضها، لأنها مظاهر تزيد الفجوة ما بين طبقات المجتمع وتخلق الحقد والكراهية..

أما أبطال رواياته فهم من ذاك الواقع الذي كان يعيشه ويمثلون شريحتين أساسيتين في المجتمع هما : الطبقة المسحوقة، والطبقة المتنفذة التي تمتلك كل شيء، ومن خلال إجراء مقارنة ما بين الطبقتين كان يصل إلى صياغة مادة إبداعية بأسلوب ساخر.

ولعل هذا الكاتب المبدع الذي احتلّ نتاجه مركز الصدارة في الكتابة الساخرة استطاع أن يحول حزنه، وحزن الناس و عذاباتهم ومراراتهم إلى قصص تثير الضحك، بقصد التغيير والثورة على الواقع السيئ الذي كان سائداً آنذاك، كل ذلك بأسلوب ساخر.

ابو كاطع علمنا كثيرا عبر كتبه، فهو رائد دمج المفردة العامية بالفصحى في المقالة الصحافية، وأحد المهتمين بتبسيط القضايا السياسية المعقدة وصبها في مقالة يفهمها ابن الشارع قبل أن يفهمها المثقفون، مؤسسا بذلك مدرسة خاصة به تخرج فيها كثير من الصحافيين.

ظل على مبدئه لم يحد عنه، كان يؤمن بالحرية المطلقة للصحافة، كان ليبرالي الفكر رغم انتمائه الحزبي.

×××

ازدحمت صحافتنا بنموذجين من الكتاب ..الاول اسير للقواعد الصارمة معني بالتوثيق على حساب المحتوى منشغل بداخله..علمه بضاعة..الكم عنده اولوية على النوع..والسير على المألوف علامته وطريقه في مخاطبة القراء اما النموذج الثاني فهو نموذج الصحفي المفكر صانع المعرفة مفجر الاسئلة، الدافع بالعقول الى اعادة الاكتشاف والبحث، عقلاني ومتمرد في ان واحد، يوائم بين عمله الصحفي وابداعه ككاتب، مثقف متحرر من القوالب الجاهزة وهو النموذج الذي انتمى اليه شمران الياسري، مما جعل حضوره فاعلا ومستمرا خارج اسوار الصحافة، يؤمن بأن الكاتب الحق يجب الا ينغلق على نفسه منعزلا عن قضايا المجتمع.وان الصحافة لامعنى لها الكتابة مالم تضع في اعتبارها الاول الدور الاجتماعي والفكري الذي يسهم به الصحفي في الارتقاء بالحياة من مستوى المعيشة الى مستوى الحرية..وان الكاتب الحقيقي هو من يمتد برسالته التنويرية والابداعية الى خارج اسوار المنتديات الخاصة، مشيعا قيم الحرية الفكرية في المجتمع ومتحديا التقاليد الجامدة بما يفتح الحوار المغلق للفكر ..ويشهد له العارفون بفضله بانه نجم حين يسير في الصحافة، ونجم عند الناس البسطاء فالكل يتهافت عليه، يمازح الجميع ويناقش الجميع، يمنح المعرفة بفرح ويستقبل الاسئلة بدهشة.يغريه الواقع ودلالاته وهو منغمس في هذا العالم وليس مصادفة ان كل ما تعلمناه ونتعلمه من شمران الياسري يدور حول الحياة، واكتشاف اسرارها، من خلال الغوص في اعماقها واكتشاف الخزين الحي من الكلمات التي تتناثر من شفاه الناس البسطاء، والكلمات هي الذات في مجال الكتابة والاداة في مجال الابداع حيث سعى ابو كاطع الى ان يكتشف عالم الكلمات في النص الابداعي خصوصا عالمه في علاقته بغيره من عوالم الواقع ولهذا خص المقال الصحفي بهواه فكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان (بصراحة) اراد من خلالها ان يقتنص بالكلمات او يثبت بها اللحظات التي سرعان ماتضيع في تعاقب الزمن او تفر من تتابع الاحداث فالمقال الصحفي عند (ابو كاطع) هو الذي يعتمد على حدة التأثير والانطباع الذي يسعى من خلاله الى اقتناص اللحظات المراوغة وابطاء تدافعها، بما يتيح للوعي ادراكها بالكلمات.ولهذا فانا اعتقد ان (ابو كاطع) اراد ان يقول بان كل مقال ادبي هو تجربة جديدة في التقنية فكل مقال استذكاري عالم صغير متفرد في بناء اللحظة التي تقتنصها الكلمات حيث يمزج من خلال سطوره الماضي بالحاضر في سطور تحمل حس السخرية العميق الذي يلازم الوعي اليقظ بالمفارقة المتكررة في المشاهد والبسمة المراوغة التي تبدو من خلال وصف الحالات..كلها صفات نجدها في تراكيب السرد الذي يفيض بشعرية تدل على ثبات الصنعة.

من بين اهتمامات الياسري العديدة اهتمامه بالرواية وقد قدم العديد من الاعمال..لكنني ساتوقف عند عمله الكبير الرباعية، حيث ما زلت اذكر المرة الاولى التي قرأت فيها الرواية مطبوعة ضمن منشورات دار الرواد واتمثل الان شخصياتها وانا اتابع مبهورا تقلب الحظوظ بالابطال وتحولات المكان والزمان وتبدل المصائر والاقدار....مسلسل يشدك اليه من الصفحات الاولى فتنسى انك امام عمل اذاعي وتؤمن ان الذي تقرأه سيرة ذاتية تتجسد فيها قوة العقل والقلب واهواء الجسد والروح وارتحالات المكان ورغبة الاكتشاف التي تلهم العقل إلى اكتساب المعرفة.

فكان ان قدم للقارئ عملا روائيا فتح به بابا يفضي الى مالم نكن نعرفه من قبل..مالم نكن نلتفت اليه في حياة اهل الريف ..وادركنا ان هذا الذي قرأناه من الكلمات ما هو الا الحياة تتقلب بين البسطاء والشيوخ، الاثرياء والفقراء، دنيا من العشق والتحليق اللانهائي في عالم الرواية،فرحة هائلة مهووسة بالصور والكلمات والازقة والطرقات والاسواق....نتابع بلهفة مصائر الابطال ونتعرف الى صوت شمران الياسري التحليلي وهو يمارس تشريحه للنفوس والعلاقات هكذا ادركنا لماذا وقع الظلم على الفلاحين ولماذاثار الشعب عام ١٩٥٨، وعرفنا مستويات الحياة الاجتماعية..وعرفنا كيف تعالج المادة التاريخية..وما ان تنتهي الرباعية حتى نكون نحن القراء قد دخلنا عوالم جديدة اصبح للريف فيها اوجه مغايرة في وعينا..واصبح لوعينا في الحياة افقا مغايرا.

شمران الياسري .. المحلق في سماء الكتابة حراً طليقاً

جمال العتابي

شهدت العقود الثلاثة (الخمسينيات، الستينيات، السبعينيات) من القرن الماضي تحولات كبيرة في ميادين الإبداع تمثلت بالمضي نحو التجديد في مناحي الحياة كافة، وفي أساليب الكتابة والسرد وتجاوز لغة الشعر وموضوعاته، والخروج على البنى والأطر التقليدية والقدرة على الابتكار ورفض كل أشكال القيود التي تكبل حرية المبدعين وفي التشكيل والموسيقى والسينما شهدت تلك السنوات تجارب عظيمة استلهمت ثقافة العصر، بملامحها الإنسانية والحضارية والجمالية، وقيم المعاصرة والحداثة، ومنجزات الفن الحديث في التكنيك واللغة والموضوع والخطاب.

في خضم هذه المشهد، عاش (أبو كاطع)، وبدأ حياته يتنفس هواء وجوده يلتقط كل دلالات ومفردات وأسرار وصور هذا المشهد بعراقيته وانتمائه اليه.. ثم ليأخذ حيزه في هذا الوسط بجدارة، انساناً، وكاتباً ومناضلاً غير متناقض مع هذا التحول الجديد في الحياة، برغم انتمائه الريفي بثقافته ولهجته، وقيمه الاجتماعية المختلفة بأسلوب الحياة والموضوع واللغة.

كيف تسنى لشمران الياسري ان يحتل موقعه الإبداعي، في ظل أجواء ثقافية كانت طاردة للمبتذل والسطحي والساذج وبعضها كان رافضاً للشعبي والموروث ويتعامل معه على انه ركام ماض جامد، لا حراك فيه ولا ينسجم مع معطيات العصر وتقنيات الكتابة الحديثة؟.

ما هي اذن المواهب التي أهلت الياسري ومكنته من ان يكون احد ابرز كتاب العمود الصحفي لعقدين من الزمن ويقدم اعمالاً روائية بلغة ريفية يشهد بريادتها وأهميتها أهم كتاب الرواية في العراق الراحل غائب طعمة فرمان.

تلك أسئلة عديدة يلقيها المتابع في عملية البحث عن سر تفوق الياسري وتميزه في منهج الكتابة وأسلوبها المتفرد.

لا شك ان عدداً غير قليل من الكتاب يمتلكون خصوصيتهم واستثناءهم من خلال عطائهم المكتنز بالجمال والدهشة. بما هو محلي عميق الاتصال بالبيئة.

(أبو كاطع) من هذا الطراز الذي اقترن اسمه برائحة الريف الذي عاش فيه معظم سنوات حياته بطينه ومائه وزرعه بفقره وجوعه، بعذابه وتمرده بسكونه وعذوبته وقبل هذا بناسه وأهله. لم يواجه (أبو كاطع) عناءً كبيراً في البحث عن أسرار اللغة واللهجة والمفردات التي وظفها في الكتابة انما كانت معيناً لا ينضب، كنزاً ثراً من الموروث مشحوناً بالعواطف والمشاعر بالقصص والحكايات والتاريخ، والألغاز والمعتقدات، والخرافات، والحقائق، هذا العالم لم يسع اليه (أبو كاطع) هو موجود فيه. ينتمي اليه عقلاً وروحاً ووجدانا انه جزء منه وتلك إحدى الميزات التي يختلف فيها (أبو كاطع) عن الشاعر الكبير مظفر النواب ابن المدينة، المثقف المتحضر المترف الذي اختار ان يحيا تجربة الريف ويعيشها بدقائقها وتفاصيلها فترك المدينة ليذهب مبحراً في اهوار العمارة وتمكن من التعرف على حياة القرية والفلاح العراقي.

وأنتج بعدها ملاحم شعرية خالدة في الشعر الشعبي.

فتجربة شمران الياسري مختلفة عن تجربة النواب في كثير من جوانبها باستثناء المضمون والغايات الإنسانية فالياسري لما يتمتع به من ذكاء حاد تمكن من تكريس اللهجة الريفية والموروث الريفي في حضور لافت في العطاء السردي الروائي والكتابة الصحفية.

والتفت شمران الى البحث والكشف عن الإيحاءات والدلالات في تلك اللغة فأبدع في رسم الأحداث والشخصيات ومضى ابعد من ذلك في المزاوجة بين واقعين مختلفين مدني وريفي خيالي وواقعي، خرافي وعلمي وتمكن ان يقنع القارئ.

(ابن المدينة) انه يقدم تجربة روائية تحمل ابتكارات جديدة ورؤى حديثة عبر عنها بلغة سهلة بسيطة لكنها ذات مغزى كبير ومضمون حي، ان روايته (قضية حمزة الخلف).. تعد مرحلة متقدمة في كتابات الياسري الروائية، في معالجتها للواقع السياسي والاجتماعي بلغة ذات حساسية عالية بالجديد والمتخيل، وتكنيك روائي حديث بدفق سردي أخاذ للنفاذ الى أعمق الأشياء. هذه السمات التي طبعت كتابات شمران، جعلتنا نكون أمام تجربة مدروسة بعناية من الصعب على آخرين الوصول اليها ما لم تتوفر لهم أدوات فن شمران وعوالمه الإنسانية الجميلة المطلقة وقدرته على إضاءة الوجوه التي عايشها حتى تلك التي كانت سبباً في اضطهاد الفلاحين وسرقة جهودهم ليسترجع من خلالها أدق المشاعر الإنسانية.

وثمة ملامح أخرى في منجز شمران الإبداعي تلك التي تتعلق بموقفه الفكري والسياسي، ونعتقد ان احد أسباب نجاحه يعود الى إيمانه بحقيقة الثقافة كمعطى أنساني وجمالي في تشكيل الوعي الاجتماعي لذا كان مؤمناً اشد الإيمان بان الكتابة فعل وطني وشعبي يرتبط بدوره كمناضل يصوغ من خلاله التعبير عن حاجات الإنسان وفرصه في الحياة الحرة، فالكتابة لديه نمط من أنماط الإبداع والتطلع الى قيم جديدة كرسها في كتاباته من دون استثناء وعلى وفق هذا التوصيف فهو كاتب يعبر عن التزامه السياسي الا انه في العديد من الكتابات يحاول دائماً الافلات من شروط التعبير وفق مقاسات السياسة والايديولوجيا لابل انه فعل ذلك دائماً ليحلق بجناحيه بعيداً في سماء الكتابة حراً، طليقاً، فشمران له نزواته وخيالاته وان صح التعبير فله فلسفته الخاصة بالحياة.

في الوقت ذاته، لم يخف (أبو كاطع) قلقه وخوفه وهو يستشرف المستقبل بقراءة ذكية دقيقة ويحذر من نذر شر تحملها طيات عقول الحكام المستبدين المملوءة حقداً وكراهية، بإحساس عال في الأحوال والظروف التي كان يعيشها العراق في أعوام السبعينيات، ان وصفه الشخصيات وحبه التفاصيل، وقدرته على القص الساحر لا تنسيه الغرض الأهم وهو يخطو هادئاً وأنيقاً في سرد الأحداث.

ان قلق (أبو كاطع) على مستقبل العراق، كان مشروعاً وهو يلمس ويرى ويعيش المحاولات التي بدأت بالإجهاز (تموز وأبوه وجده) التي عبر عنها في إحدى حكاياته بهذا العنوان. ان يحتفل الفلاحون بذكرى تموز الاولى وينطلق بعضهم بـ (هوسة) استفزازية للشيخ جوار قصره، يوجهها ويقودها أولاد الشيخ (سويلم) نفسه الذي يلتفت الى تلك الجموع بهدوء واطمئنان بالقول: (كونها صدك، مثل ما تكولون، والشيوخ ما يردون بعد، ويحكمون، احسبوني وياكم، لكن أخاف وراها حصبة وجدري).

ان ما سجله شمران من أحداث ووقائع لحقبة من تاريخ العراق أوسع من نبوءة أو توقعات ظل يصرح بها دائماً ويقدم لنا دلائلها بيقين ثابت، لقد تعلم شمران ان السلطة في العراق لا تترك للإنسان فرصة لنسيان الطغيان والاستبداد والقهر ومصادرة الحريات في كل العصور فالسلطة وان أدعت الحلم والعدالة والحق الا انها تظل تحمل دائماً نقيض تلك الادعاءات ولديها نزوع تاريخي لقمع الذات الإنسانية.

لذا يمكن القول ومن دون تردد ان شمران الياسري احتل مكانه المرموق في الوسط الإبداعي العراقي لما أنجزه من كتابات شغلت حيزاً فعالاً باهتماماتها للحياة العراقية والريفية معاً، في كثير من مضامينها وجوانبها وعلى المستويين الإنساني والوجودي وبرز اسمه كواحد من المبدعين الذين حملوا الرسالة الإبداعية بإخلاص ووعي.

شمران الياسري "سيرة مناضل"

ولد شمران الياسري عام ١٩٢٦في محافظة واسط، قضاء الحي، قرية " المحيرجة " سابقا، ناحية " الموفقية " حاليا . تتمتع أسرته بمكانة دينية خاصة في عموم المنطقة وأطرافها.

بدأ مشواره الصحفي قبل أن ينتمي الى الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٥٦، ففي عام ١٩٥٣ أصدر جريدة سرية أسمها – صوت الفلاح – مع أربعة فلاحين ومهندس زراعي، أما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ فعمل في بغداد، في صحف صوت الأحرار، البلاد، الحضارة، فضلا عن برنامجه الاذاعي الشهير " احجيها بصراحة يابو كاطع " الذي اجتذب ملايين المستمعين، وقال عنه وزير ثقافة كردستان " فلك الدين كاكه ئي " ان الكرد كانوا ينتظرونه كما ينتظره فلاحو الجنوب والوسط وأهل المدن. توقف هذا البرنامج عام ١٩٦٢ بعد اعتقال " ابو كاطع " لتوقيعه نداء السلم في كردستان . تنقل بين سجون بغداد و بعقوبة والعمارة، وبضربة حظ يطلق سراحه قبل يوم ٨ شباط ١٩٦٣ الأسود ليقصد الريف الشاسع ويختفي حتى ١٩٦٨ . أصدر خلال تخفيه صحيفة – الحقائق – وهي اسبوعية لسان حال اللجنة المحلية للحزب الشيوعي العراقي في لواء الكوت . خلال هذه السنوات كان الحصان وسيلته للتنقل والتنظيم والبريد .

بعد ١٩٦٨، كتب في "التآخي" و "طريق الشعب" و "الفكر الجديد" وكان مديرا لتحرير مجلة "الثقافة الجديدة" واشتهر بعموده اليومي في طريق الشعب – بصراحة أبو كاطع – الذي دعا آلاف القراء الى قراءة الجريدة ليس من الصفحة الاولى كما هو معتاد، بل من الصفحة التي يتصدرها عمود الصراحة. كان العمود مجساً وبارومترا، منه يعرف القارئ أحوال المطبخ السياسي العراقي، فكما كان أبو سعيد (عبد الجبار وهبي) رائدا من رواد العمود الصحفي في جريدة (اتحاد الشعب) ، صار أبو كاطع – أيضاً – علما في الكتابة الصحفية وينهل من المدرسة ذاتها .

أواسط السبعينيات، جرت محاولة لدعسه على طريق الكوت، لكنها فشلت، فأعدوا له تهمة تهريب السلاح بغية اعدامه، لكنه التجأ الى براغ عام ١٩٧٦ تحاشياً للأسوأ فقال عن نفسه أنا اول مهاجر في رحلة النفي التي بدأت بعد سنتين . كان آخر ممنوعاته مادة كتبها الى " طريق الشعب " قبل مغادرة بغداد.. تحدث فيها عن الظهر والظهيرة والظهير، والظهير هو الحليف.. و يقصد البعثيين زمن الجبهة الوطنية.. هذه الجبهة التي في مجالسه الخاصة يطلق عليها تسمية "الجبحة" أي العثرة والسقطة.

× **بعد سلسلة طويلة** من الممنوعات التي غطت حياته طولا وعرضا، رفضت وزارة الاعلام طبع رباعيته أو تعضيدها فاتخذت "الثقافة الجديدة" عام ١٩٧٢ قرارا بنشر الرواية طالبة من راغبي اقتنائها تسديد ثمنها سلفاً، فتم لـ "أبو كاطع" ما أراد.. فبعث رسالة الى وزارة الاعلام، جاء فيها: "انني أحمل اصدقائي بين يدي.. أصدقائي الذين عايشتهم ليالي الشتاء الطويلة، أحاورهم وأتخيلهم.. أبدل بعض ملامحهم، أضيف عبارة، أو أحذف لفظة، وفي نهاية المسيرة مع "الدفترين" (مخطوطة الرواية) توطدت علاقتي مع "حسين" بطل الرواية على نحو عجيب.. أناجيه وأناغيه، أحياناً أصغي الى أشعاره، وكأنني أسمع صوته، برغم مسافة السنين" .

× **وهذه الرواية – الرباعية** قال عنها الروائي الكبير غائب طعمة فرمان : "ربما لم يعرف الأدب العراقي الحديث كاتباً أوقف همه الأدبي والفكري والسياسي على الريف وقضية الفلاحين العراقيين مثلما أوقفه شمران الياسري، بما جبل عليه من صراحة وصدق وتفتح خيال، وبقدر ما أتاحت له طاقاته وأدواته الفنية" .

في ١٧ آب ١٩٨١ توفي الكاتب والصحفي الكبير أبو كاطع "شمران الياسري" في براغ بحادث سيارة وهو في طريقه لزيارة ابنه (جبران)، فووري جثمانه في مقبرة الشهداء ببيروت، وأطلقت الثورة الفلسطينية ٢١ اطلاقة، تحية وداع للرجل الذي قال عنه الفنان المبدع المعروف يوسف العاني "ظل شمران صديقاً حميماً مثل قالب الثلج في تموز" .